

الحيوانات ... » وها قد مضى أكثر من خمسين سنة على هذا القول واتنا لم نتقدم في العلم كما ينبغي ، رغم ان التعميم في العلوم خطأ خطوات لا بأس بها . علينا ان نتحرى الاسباب في ذلك .

يظن بعض المفكرين في الغرب ان هذا التأخر هو حتمي ، لانه على زعمهم من الخصائص العرقية . وتبجح في ذلك الكثيرون . وقد ذكر أحد الكتاب المعاصرين في الغرب ، الا وهو « هرمان كارغة » في كتاب نشره باللغة الالمانية : « الانسان والشعب » قوله هذا : « ان اكبر المساهمات والاشترك الفعلي في مضمار الرقي لا قيمة لها اذا لم تفهم فهمها جيدا . » وهذا على زعمه ما يجعل العرق الابيض يتميز عن بقية العروق . وهو على ما يدعيه سر تفوق هذا العرق ووصوله الى اعلى الدرجات في الحضارة . لان فيه قوى فعالة ، وهو جدير بفهم جهود المبدعين من ذويه ، وقادر على جمع القيم وتمييزها والاستفادة منها . لذلك كان هذا العرق على دعواه في ارقى الدرجات . »

اذا أمعنا النظر في هذا القول وجدنا ان الشق الاول من هذا الحكم صحيح ، لان اكبر المساهمات في مضمار الرقي لا جدوى منها اذا لم تقترن بالتقدير اللائق . اما الشق الثاني من هذا الحكم فهو غير صحيح ، وناجم عن النتائج المشاهدة . ولكن هذه النتائج ليست حتمية ولا ضرورية ، لان كثيرين من ابناء امتنا قد اتيح لهم ان يكونوا من السابقين في ميادين العلوم والفنون، عندما كانوا يدرسون في تلك الديار . اما هذا الجمود الذي نراه فهو ليس من الخصائص العرقية ، بل هو ناجم عن عدم صقل المواهب عندنا ، في الوقت الذي اتيح ذلك في الغرب ، ويضيق المجال عن ذكر العدد الكبير من علماء العرب في شتى انحاء العالم الغربي من أوروبا وامريكا والذين يقومون هناك بمهام علمية جسيمة .

ان الغرب قطع طريقا طويلا للوصول الى هذه النتائج التي نراها اليوم . وليس من المنطق في شيء ان نقوم فنقطع الطريق نفسه ، بل اننا مضطرون الى اخذ النتائج كما هي لذلك كان الاقتباس من اجلنا ضرورة لا بد منها . واذا اردنا تشبيه عصرنا بعصر

التي ترجمت الى اللغة العربية . وقد اطلعت على بعض الكتب من الكيمياء المنقولة الى اللغة العربية ، في المكتبة الوطنية بحلب ، لا اخال انه خفي شيء عن المترجم مما عرف عن هذه المادة في ذلك العصر . ولو ان الامة العربية تابعت الاقتباس بتلك الخطوات لكان لها اليوم شأن غير شاتها الحالي ، ولكانت لا تتل عن اليابان في مجارة الامم الغربية ان لم تزد عليها ، ولا يبعد ان يكون لها في الابداع الذاتي نصيب وانصر .

ان النهضة العربية العلمية كانت قبل نهضة اليابان ، فان البعثات التي ارسلتها مصر الى اوربا كانت في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فنهضة اليابان الحديثة تتبدى باعتلاء العاهل الياباني مايجي العرش وذلك عام 1857 وكان يبلغ من العمر ست عشرة سنة ، فكان رجلا حاد التفكير فأرسل رجال حكومته الى أوروبا ليطلعوا على حضارتها ومدنيتها وليرجعوا الى بلادهم وقد اغتموا ما وجدوه خيرا لهم . وفي عام 1889 سن هذا العاهل دستورا جديدا تناول الاصلاح في جميع النواحي وكان من نتائجه هذه النهضة المتتابعة حتى اليوم . وليس من العجب العجيب ان يستيقظ اليابان بعدنا بسنين ويسبقنا مراحل عديدة ؟ ...

ان النهضة العلمية العربية التي يمكننا اعتبارها متتابعة الى حد ما هي تلك النهضة التي حدثت بعد الحرب العالمية الاولى والتي كانت ولا تزال تمشي مع النهضة القومية جنباً الى جنب . ورغم اننا نجد في بعض منا احساسا عميقا بضرورة اللحاق بالغرب فالمسافة بيننا وبينهم لا تزال بعيدة جدا . وقد ذكر عبد الرحمن الكواكبي قبل نصف قرن من الزمن بان تقصيرنا عن اللحاق سوف يكون وبالاً علينا (1) واتنا لنقرأ في كتابه « ام القرى » صيحة مدوية ، هي في الحقيقة كما وصفها هو نفسه صيحة في واد او نفخة في رماد . ولقد بين فيه : « والحاصل ان تقصيرات العلماء الاقدمين واقتصارات المتأخرين وتباعد الشرقيين الى الآن عن العلوم النافعة الحيوية جعلتهم احط بكثير من الامم . ولا شك اذا تسادى تباعدهم هذا خمسين عاما اخرى تبعد النسبة بينهم وبين جيرانهم كبعدها ما بين الانسان وباقي انواع

(1) اقامت مدينة حلب في عام 1952 حفلة تكريمية بمناسبة مرور مائة عام على ولادة ذلك العبقري العربي الكبير عبد الرحمن الكواكبي، وقد تكلم بالحفلة حفيده وزير الاوقاف السابق ، والقيت كلمة بعنوان « الكواكبي باعث النهضة العلمية » .

من العصور العربية الاولى .. فيقتضي تسمية هذا العصر بعصر الترجمة ، الذي كان في اواخر العهد الاموي واولائل العهد العباسي . ومما يؤسف له حقا انه لم تتم في العصر الحديث حركة ترجمة منظمة كذلك التي قامت في الماضي وكانت السبب في النهضة العلمية المعروفة ، ولعبت دورها ايضا في تاريخ الثقافة العالمية . لانه لا يمكن الحصول على الابداع الا بعد قطع مرحلة الاقتباس بفهم جيد واسلوب موحد لا ببلبة فيه ولا تشتت ، على ان نأخذ هذا الموضوع بصورة جدية لا ان نعالجه على الهامش .

اضف الى ذلك انه من الضروري عمل مختبرات توجيهية من شأنها التنبيه الى الثروات الاقتصادية في البلاد . فاذا ما شعر طالب العلم ان هذه العلوم العصرية تكون السبب في زيادة الثروة القومية اقبل عليه بكلية . وعندما يتذوقها ويفهم دورها العملي عند ذلك لا يقوى على تركها واهمالها .

من اهم ما يجب علينا القيام به تغيير اساليبنا في التدريس ، فلا نكتفي بحفظ المواد واستظهارها ، بل نتفهمها ايضا . لاننا نجد هذه النزعة ، نزعة الحفظ والاستظهار دون محاولة فهم ، مهيمنة علينا في مدارسنا ، الابتدائية منها والثانوية . وحتى المدرسة العالية ولدى اطلاقنا على كتاب الكيمياء السذي يدرس في كليتي الزراعة والهندسة في جامعة حلب وجدته يدرس على منبج تدريس العلوم في القرون الوسطى بالاعتداد على سيطرة ارسطو بعيدا عن التدريب والتفكير . وما التجارب التي تعمل الا شيء ثانوي لا اساسي . وفي المدارس الثانوية يضاف الى مشكلة الحفظ القوانين الرياضية ليحصل الطالب على الشهادة التي يصبو اليها للتوظيف . ان هذا التوجيه دون امكن تطبيق العلم على العمل وعلى الثمرة المرجوة هو من اهم الاسباب في ابتعادها عن عالم الكشف والابداع وعدم تدرجنا في فهم العلوم وضمها هضمًا حقيقيا ، والقيام بتطبيقها عمليا .

لاشك ان طريقة العلوم تمشي في الوقت الحاضر على المنهج الاتي : المشاهدة في البدء ، ثم الفرضية ، فالجربة ، فالقانون . ولكل مرحلة من هذه المراحل يحتاج المتعلم الى تدريب معين . حتى ان المشاهدة نفسها تحتاج الى تزيين خاص ، فان الطالب كثيرا ما لا يحاول ان يرى ، بل يحاول التخيل فقط ، لانه قد ادخل في روعه انه اذا حصر فعالياته الذهنية في المحسوس فقط فذلك انتقاص من قدره وامتهان

لمكانته ، لانه كثيرا ما يرى نفسه اعظم من ان يحصر فعالياته الذهنية بالمشاهدة المحسوسة التي يقدر عليها كل فرد عادي ، وهو يرغب في التحليق في افق الخيال ، ويتوهم اشياء غير واقعية . يريد التحليق في السماء وهو لم يتعود السير بالصورة ، ولعل هذه النزعة التي تبعدنا عن تفهم العلوم بالصورة المضبوطة اتت الينا من الادب الوهمي ، ولا اقول الخيالي ، لان في الخيال الخصب ثمره مرجوة ايضا . وقد تغفل عن هذا الاتجاه في نفوسنا حتى وصل بصورة لا شعورية الى دراستنا للعلوم الطبيعية . وقد غاب عن فكر الكثيرين ان الهرب الى الخيال المحض ، او بالاحرى الى الوهم كما بينا ، ناتج عن ضيق معين الفهم عن استيعاب خفقات الطبيعة الحية ، ومن الجهل بان آيات الكون الاصلية هي اعمق واجدى وانفع من الخيال الذي لا يرتكز على اساس .

لا يمكن الانتقال من المشاهدة الى الفرضية بصورة آتية ، بل لابد من مساهمة قوة الاستنباط في تفهم الفرضية . اي انه يلزم اشراك الفعالية الذهنية الشخصية في تفهم ما يجري في الطبيعة . بعد هذه المقدمات المختلفة يلزم ان نتعرف الى القوانين الرياضية التي وضعها العلماء لتفسير ما يجري في الطبيعة . وان موقع القوانين الرياضية هو في الدرجة الثانية لا في الاولى ، فاذا ما شاهدنا خلافا في جريان الطبيعة تطبيقا على القانون الرياضي .. فيجب علينا تصحيح هذا القانون وعده مغلوطا وغير صحيح .

نعم ، اننا وان كنا بحاجة ماسة الى اقتباس صحيح منقون دون مواربة ولا خداع نفس .. فان هناك بعض المطالب النفسية التي يجب علينا مراعاتها للانتقال من الاقتباس الى الابتكار . لان الاقتباس الصحيح يولد شيئا له قيمته ، اما الاقتباس المغلوط والناقص فانه عقيم لا يولد شيئا وتعزى الصعوبة في فهم العلم اليوم من الناشئة لان الناقلين لم يفهموه تفهما جيدا ، فان الشخص الفاهم للمشكلة العلمية جدير بتفهمها بصورة بسيطة اما الذي يفهمها فهما ناقصا فغير جدير بذلك فيلزم ويدور دون جدوى ودون نتيجة وهناك بعض المطالب الروحية التي يقتضي مراعاتها ، فانه لا يمكننا ان نكون من البدعيين ما لم نغير ما بأنفسنا . وان الدراسة الآلية غير المسبقة بمقدمات نفسية عميقة لا يمكنها اعطاء الثمرة اللازمة . واننا اذا دققنا في تاريخ حياة المكتشفين نجد هناك امورا نفسية عميقة ساهمت مساهمة فعالة بالخلق والتوليد . وان الله لا يغير ما بقوم